سنية "هسّي!"

عنـــوان العمـــل	سنية "هسّي!"
النـــــــــــوع	قصص
تـــــــــــأليف	سارة شحاتة
تصـــميم الغـــلاف	ميسون صقر
إخـــراج داخلـــي	عبد القادر فايز الهندي
الطباعـــــــــة	أتيليه تاتش – المحروسة
الناشـــــــــر	الدار للنشر والتوزيع
المـــدير العـــام	محمد صلاح مراد
تليفـــــــــون	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريـد الإلكترونـي	eddar_press@yahoo.com
فـــيس بـــوك	www.facebook.com/eldarpublish
رقـــم الإيـــداع	٢٠١٥/٢٣٩٩٩
التـــرقيم الـــدولي	I.S.B.N:- 978-977-702-091-6

سنية "هسّي!"

مجموعة قصصية

٢٠١٥

لتلك الومضات . .

لأثرِها الذي لخيا به . .

كزمبُرك لعبةٍ قاربت لفّاته على الانتهاء . . .

اخفَى وغور..!

هي الصغرى بين أخواتها.. إذ كانت في عمر الطفولة بينما هم في مرحلة المراهقة، وكانت خيرَ شاهدٍ على تلك المرحلة وما فيها من مشاكسات وتمرد، وأحيانًا كثيرة.. مقالب!

بحكم سنها الصغير كانت تمضي وقتًا طويلاً مع والدتها تشاهد كل الشد والجذب بين إخوتها الصبيان والمهارة الفائقة التي كانوا يصيغون بها المقلب تلو الآخر مع أقرانهم أو مع بعضهم البعض أو مع الخدم.. صاحب الدور الأهم في هذه المقالب كان أخوها الأكبر.. العقل المدبر وكاتب السيناريوهات الأكثر حرفية. والضحية في أغلب الأحوال كان الخادم الصغير الريفي البسيط، الذي كانوا كثيرًا ما يشاركونه ألعابهم.. وأكثر ما كانوا يجعلونه بطل مقالبهم بجدارة.

كانت وظيفةُ الخادم الصغير الأساسية ابتياعَ احتياجات المنزل من البقال وتلبية المشوايِر الخارجية.. لذا كان وجهه مألوفًا لدى أغلب أصحاب المحلات بجوار منزل العائلة.

شهر مايو.. حرارة الصيف ولزوجته.. كآبة الامتحانات.. ولزوجة ساعات الاستذكار الطويلة التي بلا نهاية.. عين الأم تتابع

الجميع كصقرٍ لتتابع جدية الاستذكار.. كل ذلك يلهب القريحة نحو مزيد من التمرد.. ويشعل الفكر لمزيد من الأفكار الشيطانية.

يدها الصغيرة تمسك بثوب والدتها وهي تدور حول المنزل تتابع من البلكونة الدائرية ما يحدث داخله.. فيخفي من أخرج قصص أجاثا كريستي داخل صفحات الكتاب عند مرور لجنة التفتيش.. ويستيقظ من غفت عيناه.. الوقت يمر بطيئًا مملاً. أتعس الأوقات بالفعل هو مايو.. شهر الاختبارات بطعم الرطوبة والتوتر وصفحات كتبك البيضاء اللامعة التي تقع عليها عيناك للمرة الأولى.

يسمع أحد الإخوة صوت الأم وهى تنادي الخادم الصغير ليبتاع لها بعض الطلبات.. فتلمع عيناه في تحفُّز.. يلحق به قبل رحيله ويطلب منه ابتياع بعض الأقلام والكراسات ثم يختم عبارته بـ: "وعاوز تجيب لي "اخفى وغور" من المكتبة!!".

أمام دهشة الصبي اتخذ خالي ملامح الوجه الصارم وأوضح له أنها نوع جديد من أدوات الرسم البياني يحتاجها بشدة للمذاكرة.. وطالبه بالإسراع وعدم العودة للبيت إلا بها.

تابع الأخ الثاني ما يدور بابتسامة خبيثة وحماسة يداريها مراقبًا بين الحين والآخر غرفة الأم كي لا تسمع ما يدور.

مرت ساعة ولم يعد الصبي بعد.. حتى ساور القلق الأم فلقد أرسلته في طلب بسيط والبقال في آخر الشارع.. وكلما بدأت تتساءل عنه زادت ابتسامة الأخوين.. دقت الساعة الرابعة عصرًا وعاد الصبي أخيرًا.. عاد يلهث بشدة وقد اختلط هندامه.. وبعد أن شرب الماء وهدأ قليلا ليجيب عن الأسئلة التي أمطرته بها.

توجَّه بالحديث للأخ الأكبر معتذرًا لعدم إتيانه بطلبه موضحًا ما دار:

– "أنا توي ما جلت له عاوز اخفى وغور.. خلع اللي في رجله وجري ورايّ".

ثم تردد قليلاً وتلعثم وهو يكمل مترددًا:

– "وجالي أاا..غ.. غور ياض انت واللي مشغلينك"!

تشهق الأم في صدمة غير مصدقة.. ثم تنظر بغضب تجاه الصبية؛ فيفر الجميع من أمامها قبل أن ينفجر البركان في وجوههم.

امسك حرامي

أحب كثيرًا الاجتماعات العائلية الكبيرة حيث الجميع هنا والعدد لا يمكن حصره يجتمع كل أطفال العائلة ونمارس كل الألعاب التي لا نستطيع لعبها إلا في اجتماعاتنا الأسبوعية.. أتى الجميع وصار المنزل مزدحمًا مما سمح لنا بمزيد من المقالب والضحك.. نلعب الاستغماية ونجري لنختبئ خلف أحد مقاعد الصالون الضخمة أو تحت إحدى الموائد.. أسمع صوت خطوات شقيقتي تبحث عنا، فيكتم أحد الأطفال ضحكته وأحاول منعه من الضحك ليضج بمزيد منه. تقترب خطواتها منا فينطلق ضحكه عاليا ويخرج دون مقدمات من أسفل المائدة حيث اختبأنا.. يصطدم بخالي ويوشك أن يسقطه فيوبخنا ونجري من حوله مستكملين لعبنا. الكل يتحدث وقد تجد في الجلسة الواحدة أحاديث عدة لنفس الحضور والكل يتابع الأحاديث الأخرى بنفس القدر من متابعته حواره مع محدثه.

نساء العائلة يجتمعن في المطبخ لطهو طعام الغداء، والكل يشارك بصنف من صنع يديه. نشعر بالجوع الشديد بعد ساعات اللعب المتواصل ونتسحَّب للمطبخ محاولين تناول بعض هذه الأطعمة خلسة قبل وضعها على المائدة فتلمحنا والدتي وتوبخنا

لنخرج جميعًا مهرولين من المطبخ.. يفترش الجميع مائدة الطعام الكبيرة ويستمر الحديث في التدفق حتى وقت الطعام.

جلبة كبيرة محببة للنفس تشعرك بالدفء، خاصة في هذا الشتاء القارس.. تساعد مساحة منزل جدتي على استيعاب هذا العدد الكبير خاصة وقت المبيت.

نتخذ من ردهة المنزل الواسعة وشرفته الدائرية ملعبًا للكرة أحيانًا وللعب بالعجل أحيانًا أخرى، كل الأماكن مباحة إلا غرفة جدتي وغرفة الصالون؛ حيث الأنتيكات التي تخشى عليها جدتي ومن ثم لا يقترب منها أحد إلا الخادمات عند التنظيف.

أشعر بالرغبة في النوم تشتد رغم محاولاتنا جميعًا البقاء ساهرين.. نبدأ في السقوط في النعاس واحدًا تلو الآخر ولا يبقى سوى القليل من الساهرين المتسامرين حتى ينتصف الليل فينطلق آخر الحاضرين للنوم ويعم السكون والصمت أنحاء المنزل...

فقط الضوء الخافت للنوَّاسات القليلة المتناثرة هنا وهناك.. تمر الدقائق وأشعر برغبة ملحة في الذهاب للحمام.. أتحرك محاولاً عدم إيقاظ أحد وأنطلق بخطى سريعة للحمام.. أنتهي من أمري وأشعر بحركة في الردهة وضوء بعيد يضاء.. أتطلع بقامتي

القصيرة وأشب على قدمي لأرى من خلف مقاعد السفرة.. ألمح خالي يتجول بين أنحاء المنزل ويتجه لإحدى الغرف.. أتبعه بخفة كمشيته وأقرر مفاجأته.. يخرج الخال من الغرفة ويدخل وأنا خلفه لا يشعر بوجودي حتى أفاجئه في ردهة المنزل لأداعبه كعادتنا.. يلتفت لأجده شخصًا آخر غير خالي على الإطلاق.. أتسمَّر للحظة في الأرض ويد الشخص الغريب تمتدُّ لفمي لتمسك به فأشعر بالرعب وأنطلق من بين ساقيه كالصاروخ وقد أنساني الرعبُ الصراخَ. أندس في مكاني في الفراش وأنا أرتعد وأكاد أشعر بيده تخترق الباب والغرفة لتصل إلى رقبتي.. أرتعد بشدة لخوفي الشديد.

تلكزني أختي لأكف عن الحركة وتسأل والدتي عما بي فلا أجيب وتبقى عيناي جاحظة باتجاه الخيال خلف باب الغرفة الزجاجي الذي يحوم حوله، متوقعًا اقتحامه في أي لحظة.. ترتجف شفتاي وأنا أتخيل ما يمكنه أن يفعل بي كما رأيت في فيلم الرعب الذي شاهدناه مع الكبار في سهرة الأمس رغم تحذير جدتي لنا أننا لن نتمكن من النوم بسببه.. كان البطل لديه وشم على شكل نوع من الزهور يلتف حول ذراعه.. سألت والدتي إن كنت أستطيع أن أحصل على وشم مثله على شكل كلب شرس لكنها رفضت ووبختني بشدة.. تُرى هل يحمل الرجل بالخارج وشمًا على شكل

زهورا كذلك أم شكل آخر؟! أشعر بالرغبة في النوم وأحاول الإفاقة.. أفيق على صوت حركة حول باب غرفتنا فأفيق مجددًا مسترجعًا الأحداث الماضية.. تحاول والدتي تهدئتي وتمر الساعات حتى طلوع الفجر حتى أسترجع رباطة جأشي.

وقبل أن أروي لوالدتي ما حدث استيقظ المنزل على صراخ جدتي ليهرع الجميع لغرفتها وهي تمسك بعلب مجوهراتها التي سرق منها المصوغات وبعض المسروقات الأخرى.. يبدو أن مواجهتي للص قد منعته من التمادي والإتيان على باقي محتويات المنزل.

يتساءل الجميع عما جرى وكيف دخل.. هنا أنطق أخيرًا وقد عاودني الشعور بالأمان وسط الجمع وتشعر والدتي بالصدمة والرعب لهول ما تعرَّض له ابنها.. تحتضنني جدتي وتتأكد من سلامتي ويلتف حولي باقي أفراد الأسرة وقد تناسى الجميع السرقة واهتموا لسلامة هذا المغامر الصغير. يشعر صغار الأسرة بالغيرة من اهتمام العائلة بي رغم هول التجربة ويحاول الكبار طمأنة والدتي أنني لن أتذكرها لحداثة سني ولن تؤثر علي مستقبلاً.. لا أفهم لماذا تشعر والدتي بالخوف! فالرجل الشرير قد ذهب ولم يؤذنا ولو حاول العودة فسنكون مستعدين له ومتسلحين بكافة الأدوات لضربه.

يهمس خالي لوالدتي أنه عرف مدخل اللص، يدلفان إلى الشرفة فأتبعهما خلسة. يريها آثار قدم بين طين أحواض الزرع ويخبرها أنه لعله تسلل وسط جلبة الصياح واللمة دون الشعور به بل ربما مر من أمامنا دون أن نشعر وظل ماكثًا في غرفة الصالون المغلقة طيلة اليوم حتى نام الجميع لوجود آثار قدمه خلف كنبة الصالون.. تشعر والدتي بالرعب وتخبره أنها تشعر أن شعورها بالأمان صار هشًّا حيث كان معنا طيلة اليوم دون أن نشعر به.. يطلب منها ألا تطلع جدتي على الأمر وهو يبحث عن كيفية تأمين حدود المنزل. أشعر بكثير من الحماس فأنطلق لإخبار شقيقتي دون أن يسمعنا أحد.

تتأملني والدتي كل فترة بقلق واهتمام، وقد أحببت ذلك، ثم تبتسم حين تراني أروي مغامراتي المثيرة وبطولاتي في ملاحقة اللص وأعين الصغار حولي منبهرة وأنا أحتل دور البطولة.

سنية.. (هسّي!)

كانت من عادات الجدود قديمًا وجود أكثر من خادمة في المنزل تساعد صاحبة البيت في أعمال النظافة والطهو وما إلى ذلك. لكن كان العدد مبالغًا فيه في بعض المراحل من حياتهم.. عندما أصر أحد العاملين بالعزبة أن تتولى جدتى أمر بناته الخمس.. ليساعدنها في أعمال المنزل.. وعبثًا تحاول إفهامه أنها لا تحتاج لخمس مرة واحدة لكن الرجل كان مصرًّا حيث إنها بذلك سترفع عن كاهله حملاً ماديًّا كبيرًا.. بل وانتهى الأمر أن أخاهم أتى معهم كذلك حتى لا يتركوه وحيدًا!

لذا كانت واحدة تساعد في أعمال النظافة.. وأخرى في المطبخ.. وثالثة تساعد في الغسيل.. والرابعة تساعد الأولى والثانية! أما الصبي فكان للطلبات الخارجية.. وهنا بقي أمر الخامسة أصغرهن والتي كانت طفلة دون السادسة.. تدعى (سنية).. وهكذا لا عمل يتبقى لسنية تقوم به. ولحداثة سنها كانت تشفق جدتي عليها من أعمال البيت الشاقة. فما كان من جدتى إلا أن أوكلت لها مهمة عظيمة مهمة تتوافق مع سنها الصغير.. وصارت تلك المهمة

سببًا فيما بعد في شهرتها أكثر من كل إخوتها اللاتي يتولين القيام بالمهام الصعبة.

كانت مهمة (سنية) هي ملاعبة ومحايلة حفيدة جدتى الرضيعة حتى لا تبكي! ومن ثم ابتكرت (سنية) عبارتها المفضلة – والوحيدة– عند ملاعبتها وهي أن تقترب منها وتبتعد وهي تدغدغها قائلة في حماسة مبالغ فيها وهي ترفع حاجبيها لأعلى كي تفاجئ الرضيعة قائلة:

–" هيييه.. هسّييي!"

كانت.. هذه هي المهمة الوحيدة الموكلة لها وكانت بارعة فيها حقًّا لأن الرضيعة كانت تنفجر ضحكًا في كل مرة تردد لها تلك العبارة رغم تكرارها الممل والمثير لأعصاب الجالس بجوارها لترددها الدائم والمستمر بنفس النغمة الصوتية؛ ومن ثم صارت شهيرة بها.. ثم تحول الأمر أن أصبح اسمها مقترنًا دومًا بـ(هسّي) فبدأ الأمر بدعابة أطلقها الأخوال عند ندائها.. ثم صارت عادة ولازمة تقترن باسمها عند ندائها حتى من أخواتها.. ثم اتسعت الدائرة لتشمل الجيران.. ثم لم تعد (سنية) بل صارت (سنية هسّي) اسمًا واحدًا مركبًا.. حتى بعد أن كبرت الرضيعة ولم تعد تلاعبها بـ(هسي) بعدها!

وحتى بعد رحيلها عن منزل جدتي للزواج كان الجميع يودعها ويبارك لها بذلك اللقب مما أصاب الأب بدهشة شديدة خاصة عندما كان يرى اعتيادية اللقب على سمع البنت وأخواتها...

وهكذا عندما صار الأبناء آباءً كانوا يتفننون في ملاعبة الأطفال بشتى الطرق وبقيت كلمة "هسّي" تحمل أثرًا طيبًا ما إن يقوله أحد الأخوال مداعبًا حتى يضج الجميع ضحكًا ويظل الأبناء ينظرون لبعضهم البعض في بلاهة عن السبب في كل هذا الضحك.

بنت العمدة

هالة من الغموض أحاطت بها منذ لحظة مجيئها.. ابتسامة شاحبة ونظرات شاردة تقابلنا بها تزيد من فضولي تجاهها. (شاهندة) هو اسمها.. زميلتهن الوافدة حديثًا فتاة شديدة الهدوء وتلتزم الصمت كنذر مقدس.. تتابع الكل بنظرات مسطحة لا تعبير فيها.. يكثر الهمس حولها وكعادة اجتماعية تجاه الشخص الصموت الذي لا يندمج مع الجموع يتكون رد فعلي عدائي تجاهها وتتجاهلها الفتيات. ويتوارث هذا التجاهل من عام دراسي للآخر ومن فتاة لأخرى لعشرات لم يعاصرنها منذ البداية من الأساس دون حتى أن تتساءل باقي الفتيات عن سببه.

ينتابها الفضول ذات يوم وتشعر بالشفقة تجاهها وهي تراها في دقائق الفسحة وحيدة وتصر على بدء الحديث معها لفك شفرتها:

- "ازيك .. أنا "روض" معاكي في الفصل".

لحظة صمت طويلة ثم ابتسامة عريضة وإجابة مبتهجة:

- "أنا شاهندة.. أنا عارفاكي":

طيلة دقائق الفسحة لم تتوقفا عن الحديث. كانت فتاة رقيقة خجولة.. من القليلات اللاتي التحقن بقسم المدرسة الداخلي وهو ما كان السبب في فضولها تجاهها.. أسئلة كثيرة دارت في رأسها وهي عائدة في السيارة لمنزل الأسرة.. كيف يبيت المرء في مدرسته؟ كيف تكون الحياة بعد مغيب الشمس؟ هل مسموح لهن أن يتنقَّلن في كل أنحاء المدرسة المحرمة عليهن صباحًا؟ هل يدخلن مشتل الراهبات كثيف الشجر المخيف؟ هل يتابعن حياة الراهبات السرية ويعرفن ما يدور خلف أسوار الدير الكبير؟

لم تكن إجابات "شاهندة" تشفي فضول والدتي فهي كانت تكتفي بإجابات مبتورة عن كل الأسئلة وفي النهاية وتحت ضغطها أخبرتها بتفاصيل يومها الذي اتسعت أذنا والدتي لسماعها: يرحل الجميع فتقوم الراهبات بجمعهن للغذاء في القاعة الكبيرة حيث يتقابلن مع فتيات الإعدادي والثانوي الأكبر سنًّا واللاتي يشكلن حزبًا لا يمكنهن اختراقه وينظرن لهن –بنات الابتدائي– بخفة..

ينتهي الغداء فينسحب كلٌّ إلى مكانه المخصص في النزل الداخلي وتبدأ حلقة الاستذكار وأداء الفروض المنزلية، ثم الساعة الأخيرة من المساء تكون إما لمشاهدة فيلم أو للعب بالبازل أو لتعلم فنون الحياكة...

تنظر لها بدهشة:

- "بس كده؟!".

كانت هيأت نفسها لسماع أساطير عن كل الأماكن الممنوعة عليهن في المدرسة، وحاولت معرفة تفاصيل أكثر عن أماكن النوم ووصف أدق للموجودات داخل النزل وعن المشتل السري... فكانت تأتيها ردود سريعة غير مرحبة.

لم تقتنع بهذه الردود المقتضبة.. لا بد أن هناك الكثير من المغامرات التي تريد الاستئثار بها لنفسها.. فلو صدقت فحياتها مملة جدًّا. استجابت والدتي لرغبتها في عدم الرغبة في الحديث عن المدرسة وانتقلن للحديث عن عائلتها.. تحكي لها (روض) عن أشقائها ومقالبهم وحياتها اليومية وتسألها عن حياتها فتخبرها أنها من أحد المراكز في محافظة الشرقية وهي الابنة الوحيدة على أربع أشقاء من ذكور.. وأراد والدها أن تحظى بتعليم راقٍ يليق بابنة العمدة.. ومن ثم ألحقها بمدرسة الراهبات في القاهرة وهو يرسل السائق كل جمعة لاصطحابها لتقضي اليوم معهم.

دموع التمعت في عيون "شاهندة" جعلت والدتي تتوقف عن الحديث قليلاً وهي تشعر بذنب لا سبب له. تربت على كتفها

فتزداد دموعها غزارة وتغمغم بكلام لا تفهم معظمه من البكاء ومن لهجتها الريفية التي استعادتها حين خارت قواها.. تنظر حولها في حرج لزميلاتهما اللاتي استبد الفضول بهن واجتمعن في دائرة يتهامسن عن كنه ما يدور أمامهن وعن أن هناك من كسر التابو وتحدث لشاهندة التي لا يتحدث لها أحدٌ

تخبرها أنها لا تريد المكوث في المدرسة وتشعر بالاشتياق لوالدتها لكن والدها يصر على إكمال تعليمها.. تريد اللعب مع أشقائها في حديقة منزلهم الكبير وتعاون جدتها في الخبز ورعاية الأرانب الصغيرة كما كانت تفعل سابقًا..

تتأمل "روض" دموعها المنسابة على بشرتها البيضاء وتلتمع خصلات شعرها الأشقر في ضوء الشمس.. كانت "شاهندة" ذات ملامح جميلة للغاية ولكنها كانت تصبغ دومًا ملامحها تلك بلمسة حزينة ونظرة مكسورة للوجود من حولها.

تودع صديقتها يوم السبت وهي تتابع حديث الزميلات عما سيفعلنه في إجازة الأحد وتشعر بمزيد من الذنب لرؤية نظرة "شاهندة" لهن وما يعتمل في ذهنها وهي تلوح لها في حزن ولهفة بيدها للدخول في النزل الداخلي حيث تقضي إجازتها به. تتابعها

بنظراتها من خلف زجاج السيارة حتى تختفي خصلات شعرها الأشقر خلف الباب الخشبي الكبير.

تنكر

طرق السفر في هذا البلد طويلة كأنها أبدية.. الصحراء على مرمى البصر واللون الأصفر يحيط بك من كل جانب.. تمر سيارة مسرعة بجوارك ثم تعود لوحدتك على الطريق من جديد.. القيادة في مثل هذا الطريق تسبب النعاس لأغلب السائقين لو لم يجد ما يثير اهتمامه ويبقيه متيقظًا. تلحظ علامات التعب على زوجها فتطلب منه التوقف للراحة قليلاً فهما في السيارة منذ ما يقارب الأربع ساعات ولم تكن صحته على ما يرام منذ الصباح.

يحاول أن يفيق بعد الراحة على جانب الطريق قليلاً ويغسل وجهه ببعض الماء، لكن التعب يشتد عليه ويشعر بآلام حادة في جانبه الأمين.. تحتار في ما تفعل وهما في العراء والصحراء تحدهما من كل الاتجاهات، ومن ثم كان لا بد من مواصلة الطريق وحمله لأقرب مشفى.. كيف إذن التحرك وهو لا يقوى على القيادة.. وقوانين البلد لا تسمح للمرأة بالقيادة!

هنا اتخذت قرارها وأخرجت الشال الأبيض وعقدته على رأسها في الربطة التقليدية لأهل البلد وأخرجت العقال من درج تابلوه السيارة

وعقدته على الشال وأخفت جانب وجهها حتى يصير التعرف على ملامحها عسيرًا.

- "ايه رأيك؟".

تقولها وهي تسأله عن اقتناعه بزيها التنكري فيبتسم رغم ألمه الشديد، وتبدأ رحلة القيادة في ظل جو من التوتر والقلق.. كلما رأت سيارة مقبلة أبطأت حتى يمر بجوارها سريعًا ولا يلحظ وجهها.

اقتربت من مشارف أحد التجمعات السكنية فقامت بلف جزء الشال على أسفل وجهها فلم يظهر سوى عينيها.. التقت عيناها بأعين صبي صغير فأدارت وجهها سريعًا حتى لا ينكشف الأمر.. فالأمر جد خطير والعقوبة ليست هينة لمن يخالف التعليمات، خاصة للأغراب.

وعند مشارف المحافظة توقفا ليستبدلا الأماكن وقد تحسنت حالته قليلاً بعد المسكنات والراحة لمدة ساعتين في الكنبة الخلفية للسيارة.. هكذا مرا بسلام من أعين رجال الأمن ووصلا وجهتما بسلام.. هنا توجهت لأقرب مقعد لتتهاوى عليه وقد انتهت كل طاقتها بعد هذا الضغط النفسي الكبير وتتبادل الأدوار معه ليقوم هو بتمريضها وإيصالها لأقرب وحدة صحية.

أخي لاعب السيرك

- "زي ما باحكي لك كده".

يقولها جارنا في حماس شديد وأتابع حركات يده المتتابعة العصبية.. حركات جسده أكثر من الكلمات في حواره فهو يستعين بكل أجزاء جسده لإيصال ما يريده وليشد انتباهك.. تتسع عيناي وأذناي لالتقاط بعض الكلمات من الحوار وقد استبد بي الفضول فيطلب مني أبي الدخول للعب مع إخوتي.. أتباطأ في السير متعمدة التقاط آخر الكلمات:

- "كان ماشي على السور وفارد إيده".

أتوقف عن السير وقد أصابتني الدهشة.. يتحدث بكل جدية ولهفة عن أخي الذي رآه طيلة ليلة أمس يسير على سور الشرفة رافعًا ذراعيه وقد حاول أن يصرخ كي يجعله ينتبه لكنه خاف أن يشعر بالخوف فيختل توازنه ويسقط.. يطلب من أبي الاهتمام بالأمر حتى لا يغافلهم مرة أخرى ويعود لنفس الفعل مرة ثانية.

يردد أبي كلمات بسيطة ويقوم بتهدئة الجار ببعض العبارات وهو يصحبه إلى باب الشقة.. أنتظر ما سيحدث بعد ذلك وأنا أشعر بكثير من الحماسة.

يروي لوالدتي ما دار من حديث بينهما فتشهق في رعب متخيلة أخي في ذلك الوضع.. يضحك أبي موضحًا أن الجار لا بد أنه يتخيل ما يحكي عنه؛ فمن اللامعقول أن يتراقص أخي على سور الشرفة الرفيع مرة واثنتين لمدة ربع ساعة كاملة كما يروي جارنا. تشك أمي قليلاً وقد استبد بها الخوف من إمكانية أن يكون ذلك قد حدث بالفعل... فأخي نحيل البنية ولا يحتاج لكثير من الاتزان.. يضحك أبي ثانية وينصحها بنسيان الأمر.

أفكر مليًّا فيما قيل.. وأتأمل أخي الذي يتابع التلفاز، في شك.. ترى هل قام بذلك بالفعل؟ لماذا اختار سور الشرفة وهو مكان مكشوف سيراه منه الجميع.. أعقد العزم على التأكد بنفسي وعدم ترك باب موارب للشك.

أسند ظهري للحائط وقد استبدت بي الرغبة في النوم وقد قررت السهر لمراقبته ليلاً والتأكد من حقيقة الأمر.. أغفو قليلاً فأعود للاعتدال في جلستي في الصالة متابعة باب الشرفة.. يمر خاطر خبيث بعقلي: فمن الممكن أن يقوم هذه المرة باعتلاء سور الشرفة

الملحقة بغرفته بعد أن كشف جارنا الأمر. أطل من بين خصاص النافذة تجاه شرفة جارنا فأجده واقفًا بها كالصقر في الساعات الأخيرة من الليل مراقبًا شرفتنا فأشعر بالرعب وأتراجع.

أتجه لغرفة أخي وأقرر مراقبتها.. أجلس لبضع دقائق منتبهة لكل صوت غريب وكل مواء قط في الشارع.. أفيق على صوت صراخ وسقوط جسم فوقي فأصرخ بدوري:

– "ايه الي منيمك هنا رعبتيني!".

كانت هذه منى أختي التي استيقظت لشرب الماء فاصطدمت بجسدي في الظلام بعد أن استغرقت في النوم في جلستي أمام الباب.. يفيق باقي أهل البيت وبعد التساؤل والدهشة أخبرهم بسبب جلستي المريبة هذه فيرد أخي بهودء وخبث:

– "مافيش غيرك دلوقت اللي لقيناه بره أودته بالليل.. مين يا ترى اللي شافه بيمشي على السور؟".

تلك النقوش المضيئة

- "عاوزاها؟".

تسألني والدتي وهى ترقب نظرتي تجاه إحدى القصص فتبتاعها لي مع جرائد اليوم وتبتسم لسعادتي الغامرة.. تحثني على الذهاب للعب بالمراجيح مع الأطفال فأرفض وأظل بجوارها طالبة أن تقرأ لي القصة وأتابع مع حكيها الرسوم سارحةً في هذا العالم الجميل.. ومن ثم صار واجبًا مقدسًا كل مرة نذهب للنادي أن أشتري قصة جديدة وأذهب لمكتبة النادي للصغار حين صرت أجيد القراءة أمضي ساعة واحدة بالداخل أقرأ فيها بعض القصص ثم أخرج للعب مع وعد والدتي بقراءة القصة الجديدة سويًّا حين نعود.

أجمل أوقاتي كانت هي تلك التي أقضيها معها وأسمع صوتها يروي أحداث القصة. تجلس على الكنبة الكبيرة بصالة المنزل محددة الوقت الذي سنمضيه معًا لانشغالها بمذاكرة إخوتي، فأهرع للمكتبة أخرج أحد الكتب وأجلس بجوارها.. أشعة الشمس تتخلل خصاص الشيش لتفترش السجادة الحمراء وتشاركنا جلستنا وكأنها تتطلع هي أيضًا لسماع القصة.

أتأمل الرسوم الملونة بافتتان.. جحا يرتدي جلبابه الواسع وطاقيته المضحكة وهو يركب حماره مع ابنه فيضحك الناس منه فينزل ليستمروا في الضحك، أسألها في دهشة:

– "هم بيضحكوا على ايه؟".

تطلب مني الصبر وأنا أتابع صوتها يروي لي الأحداث، حتى قام جحا بحمل الحمار واستمر ضحك الناس...

–" طب ما يسيبهم يضحكوا!".

تبتسم والدتي وهي تربت على كتفي.

أتابع النقوش التي رسمتها الشمس على البساط والتي تصل لأطراف قدمي شيئًا فشيئًا، وتبدأ أمي في إطعامي وهي تحكي لي أحداث القصة.. أتابع الصور وصوتها الهامس وأحاول تسجيله داخل عقلي لأستعيده فيما بعد. تنتهي الدقائق سريعًا وتنهض والدتي لإتمام مهامها الأخرى.

أظل في مكاني أمسك بالقصة وأعيد قراءتها مستعيدة نبرات صوتها وأرددها لنفسي بنفس طريقتها.. متابعةً نقوش الشمس على السجادة وهي تتراجع نحو النافذة منبئة بموعد رحيلها وضوؤها

يضعف تدريجيًّا معلنًا موعد نومه فأتشبث بتلك اللحظات الأخيرة الثمينة ناظرة للصور، حتى يحل الظلام وتقوم أختي بإنارة المكان متسائلة في دهشة:

- "قاعدة في الضلمة ليه؟!".

اليوم الأول

أخبرتني صديقتي في النادي أن أول يوم لها في المدرسة بكت طويلاً وشعرت بالخوف، وتخبرني أنني سأشعر بالخوف كذلك غدًا حيث سيكون يومي الأول في مدرستي وستقوم والدتي بإيصالي، وتنصحني أنه عليَّ التمسك بوالدتي ولا أتركها أبدًا. أشعر بتوتر قليلاً وأنا منتظرة في فناء المدرسة ثم مع مرور الوقت أدرك أنني لا أريد الشعور بالتوتر إنما أنا فرحة للغاية ولا أريد البكاء كما أخبرتني صديقتي. يومي الأول لا يمثل لي أي مشكلة على الإطلاق بل على العكس تعترف والدتى أنني طفلة مريحة لا أسبب متاعب من أي نوع خاصة في ذلك اليوم. كنت اعتدت مكوثي مع جدتي في ساعات عمل أمي صباحًا لذلك لم يُثر الأمر بداخلي أي فزع قدر ما أثار من دهشة من اتساع المدرسة الذي كنت أعجز عن الإلمام بجوانبها وكنت أنشغل بتأمل ملابسي الجديدة وحذائي الأسود اللامع في فخر.

يبدو أن والدتي اطمأنت لموقفي هذا وزادها طمأنينة وثقة بابنتها الهادئة العاقلة! فكانت تجلس بجواري قرب أحد المقاعد الحجرية بانتظار جرس بدء اليوم الدراسي تربِّت على كتفي لتهدئتي أمام

أسراب الفتيات الباكيات، ولما رأت لا مبالاتي استراحت في جلستها وأخذنا نتابع معًا قدوم الفتيات وهي تخبرني أنهن زميلاتي الجديدات وتخبرني بضرورة طاعة أوامر المدرسات والراهبات وعدم إثارة المشاكل.

بمرور الوقت بدأنا السير بجوار الفصول، أتأمل ضخامة الأبواب وارتفاعها الشاهق.. الفصول تم دهنها من الداخل باللون الأخضر، وتبرز المقاعد الصغيرة الملونة من داخل النوافذ الزجاجية.. تقوم بتعريفي على مفردات العالم الجديد وهي سعيدة بحماستي وبالأخص لكوني لم أملأ الدنيا صراخًا وأسبب لها الحرج.

يبدو أنني أفرطت في إظهار الشجاعة حتى أدخلت الثقة الزائدة تجاهي؛ إذ أثناء جلوسي بجوارها رأيت إحدى الفتيات مع والدتها تعوي وتبكي وتركل الأرض بقدميها، ووالدتها تريد الرحيل بينما الفتاة تتشبث بها. اقتربتْ منا الأم وأخبرتنا أنها معلمة وعليها التواجد بالمدرسة التي تعمل بها في اليوم الأول مبكرًا، وطلبت مساعدة والدتي في طمأنة الطفلة حيث إن ابنتها -وتشير لي- لا تبكي... فأبتسم في فخر.

أخذت والدتي تربِّت على رأس الفتاة وتعطيها قطعة حلوى وهي تسألها عن اسمها حتى استطاعت والدتها الرحيل للحاق بعملها، فقمت أنا بدوري كما يجب وأخذت في طمأنتها أنه لا يوجد ما يدعو للبكاء.. وكلما تحدثت معها زادت الفتاة في البكاء!

أصابني بكاؤها بالضيق وأحسست أنها ستضيِّع عليَّ تلك الدقائق القليلة مع والدتي. وحين دق ميعاد الجرس وبدأنا في الاصطفاف قبَّلتني والدتي مودعة وهي تنصحني بالاهتمام بنفسي جيدًا وتركتني مع الفتاة الباكية التي لم تكف دقيقة عن الصراخ. وفجأة تحولت من خانة المشاهد المدلل التي تستمتع بتربيت والدتها إلى خانة مغايرة تمامًا من المسئولية والتوتر! تحول الجو من طقس مشمس وسماء صافية لطقس ملبَّد بالغيوم ورعد وبرق. ظللتُ طيلة وقت الطابور منشغلة بإسكات الفتاة لا لشيء سوى لأنني شعرت بالانزعاج حقا منها وحين بدأنا التحرك للفصول تنفست الصعداء للتخلص منها على عاتق أي شخص آخر، ولكن جاء حظي السعيد وأصبحت معي في نفس الفصل وأجلستها المعلمة بجواري حين أخبرتها أنني صديقتها ولما رأتنى المعلمة مهتمة بأمرها لحد كبير في الطابور!

هكذا أمضيت أول يوم في محاولات مستميتة لتهدئتها، وصرنا صديقتين مقربتين بعدها.. ولكنني إذ فجأةً أشعر بالحزن فلقد نسيت نصيحة صديقتي بالبكاء والتمسك بوالدتي حتى أحظى بمزيد من التدليل والمعاملة الخاصة كما حدث معها.. فجأة وجدت نفسي من يقدم تلك المعاملة الخاصة المدللة لطفلة مثلي أراها للمرة الأولى منذ دقائق. أدرك ذلك بعد فوات الأوان فكانت والدتي تلوح لي من بعيد مودعة لبدء اليوم الدراسي الأول.

سلطة

لا تحبني المدام.. أقولها لوالدتي فتعاتبني وتتساءل عن السبب في ذلك.. وكلما أخبرتها أنها لا تحبني "وخلاص" تطلب مني التوقف عن الشعور بذلك الأمر والتركيز أكثر داخل الفصل حتى أكون من الطلبة المتفوقات فتحبني أكثر.

لا أحب الحضانة ولا أحب الذهاب لها. أجد صعوبة في فهم الجمل الطويلة بالفرنسية التي ترددها جميع الصديقات بينما أنا أكاد أنطق A B C وأجدها تطلب منا ترديدها، وبالفعل لدهشتي أسمع زميلاتي ترددن الجمل عن يوميات الأخت "سيلين" بعبارات فرنسية عميقة كتلك التي أسمعها من المعلمة، فيزداد شعوري بالاكتئاب.. أنا لا أفقه أي شيء مما يقوله من هم في مثل سني. يا للهول!

ذلك اليوم تطلب منا المعلمة أن نخبر أمهاتنا بالإتيان بحاجيات إعداد السلطة حيث سنرتدي ملابس الطهاة غدًا ونقوم بالطهو.. فرحت للغاية لهذا التجديد وطلبت من والدتي كل ما أستطيع عمل السلطة به، وكنت في قمة سعادتي في اليوم التالي وأنا محملة

باللازم وأكاد لا أستطيع انتظار ساعات الدراسة حتى أصل ونقوم بلعب دور الطاهي.

أخرجتُ المريلة الملونة الصغيرة التي أعدتها لي والدتي بنفسها ومعها الأطباق والملاعق، وأخذت في إخراج الجزر والخيار والطماطم وأنا أتأمل زميلاتي.. فشعرت أن هناك شيئًا ما لا يسير على ما يرام، فأمام نظرات الدهشة للجميع وجدتهن يخرجن الموز والتفاح والبرتقال.. أخذت أتساءل: ما الخطأ؟ ألم تقل لنا أننا سنقوم بإعداد السلطة؟ فما دخل الموز بالأمر؟! بالطبع أصيبت المعلمة بالإحباط لدى رؤيتي ما جلبتُ، وأخذت تضرب كفًّا بكف وهي تخبرني:

- "إحنا مش قلنا يا حبيبتي حنعمل Salade de fruits?".

أضيء مصباح صغير داخل رأسي.. لم أنتبه لأمر الفاكهة.. فكل ما استطعت اللحاق به من حديثها السريع وقتها كلمة "سلطة"!

عندما أخبرت والدتي وأنا حزينة بما حدث أخذت تضحك بقوة وهي تحتضنني وتحثني على عدم الحزن بعد أن رأت علامات الاكتئاب على وجهي. لم أعد أحب تلك الكلمة ولا أجد الراحة عند سمعاها أو رؤيتها في بيتنا أو في أحد العزومات فأسترجع صورة

معلمتي ونظرتها المحبَطة بيني وبين الطماطم والجزر الذي جلبته وتعزِفُ نفسي عن تناول الطبق رغم حبي للفاكهة.

الأكمام ممنوعة

أتأمل صور والدتي القديمة بالأبيض والأسود في سنوات دراستها بكلية الطب وكأنني أشاهد فيلمًا من حقبة الستينيات والسبعينيات، أتأمل بشغف قصَّات الشعر وملابسهن الجميلة ذات الذوق الرفيع، وأتأمل بنطلوني الجينز في أسى أمام كل تلك الأناقة وكأن الفتيات كن يخرجن من منازلهن للكلية أو حتى لجلب الخضار وهن في قمة أناقتهن وكأنهن ذاهبات لحفل في عرض للموضة – باعترافها– كانت والدتي مدللة للغاية في بيت والديها، لم تكن تقوم بأي أعمال منزلية.. لكنها كانت تهوى التفصيل من حين لآخر وفي وقت فراغها، فكانت تقوم بتفصيل بعض الموديلات من الـ"باترون" من مجلة الـ"بوردا" الشهيرة آنذاك في السبعينيات والثمانينيات. وحين كنت أرى ملابسها التي قامت بتفصيلها أثناء الدراسة الجامعية كان تنتابني الغيرة لجودة الخياطة ولجمال الموديلات وأناقتها.

وهكذا كنت ألحّ يوميًّا أن تصنع لي مثل تلك الأثواب الرائعة التي كنت أشاهدها.. لكن كانت لديها مشكلة صغيرة وهي أنها لم تكن

تجيد صنع الأكمام! لكن ذلك لم يكن واضحًا في أزياء الجامعة في السبيعينات حيث الأكمام النادرة.

في فترة مراهقتي عند تصفحي لبعض مجلاتها القديمة أعجبتني للغاية الأذواق وتفردها وطلبت منها أن تقوم بتفصيل أحد الموديلات لي، وكان اختياري ثوب سهرة أسود.. وقامت والدتي بتفصيله يوم إجازتها بكل حماسة وأبدعت فيه فخرج غاية في الجمال وأعجب به أفراد الأسرة والأصدقاء حين ارتديته بأحد الأفراح.. وبعدها طمعت في المزيد فطلبت منها تفصيل إحدي الجاكيتات.. ترددت والدتي قليلاً ولكن أمام إصراري بدأت في تفصيله وحين تطلب مني ارتداءه قبل الخياطة للتأكد من القياس كان يبدأ فاصل من الضحك، فتارة تجد أحد الأكمام طويلاً للغاية والآخر قصيرًا يظهر رسغي منه وتارة يصبح أحد الأكمام عريضًا للغاية يشبه أكمام السحرة وأوشك أن أخرج منه أرنبًا أبيض!

هكذا ضاع اليوم كله في ضبط الأكمام بيما أنهت الجاكيت في بضع ساعات حتى انتهى الأمر بحل جذري وتحول الجاكيت لجيليه! واحتفظتُ بالأكمام لنعاود الضحك عليها ونستعيد لحظات المرح تلك.

الغريب أن تلك المشكلة انتقلت بالوراثة لي فحين كنت –كعادة الفتيات– أقوم بتفصيل ملابس عرائسي من قصاصات القماش المتبقية كنت أتفنن في صنع الفساتين والجونلات حتى تصير الأزمة في صنع القمصان والبلوزات.. فكان الحل السحري.. قص الأكمام التي تشكل تلك المعضلة وحين كان يقابلني مزاح البعض لرؤيتهم بلا أكمام بعد قصها بشكل غير احترافي كنت أنزع ذراعيها معلنةً بأسى أنها فقدت ذراعها في حادث أليم.

"ماري أنطوانيت" والسندباد البحري

كانت إجازتي الأسبوعية من المدرسة يومي الجمعة والأحد.

ومن ثم كان يشكل يوم الأحد مشكلة لوالدتي لظروف عملها في سنوات عمرى الأولى وسن الحضانة؛ حيث لا تريد تركي بدار حضانة ولا تأمن لمكوثي بالمنزل.. فكان الحل هو المكوث مع جدتي لحين انتهاء ساعات عيادة والدتي. كانت تلك الساعات القليلة من أمتع الأوقات لدي.. تدق والدتي جرس الباب وأحتسب الثواني القليلة وأسمع صوت خطوات جدتي الثقيلة ثم صرير الباب. رائحة المنزل ما زالت في أنفي حتى اليوم.. مزيج من رائحة الخشب القديم مع رائحة الطهو والبخور.. تحييها والدتي وألثمها فتنظر لي نظرات طويلة اعتدتها.

تطمئن والدتي على رعايتها لي وتخبرها:

– "سارة معزتها من معزّتك متوصنيش عليها!".

وتنشغل مع والدتي في حديث مقتضب أكون حينها قد دلفت للمنزل وحييت جدي.. في جلسته المعتادة قرب النافذة مستمتعًا بأشعة الشمس من بين خصاص النافذة ومرتديًا روبه الصوفي

شتاءً وبيجامة كاروهات صيفًا.. غطاء رأسه الدائم وعويناته السميكة وتحيته التقليدية التي لم يتخل عنها.

- "سعيدة يا جدو".

- "سعيدة يا سارة".

تنطلق والدتي لعملها وتبدأ ساعاتي مع جدتي التي أنتظرها من الأسبوع للآخر. تلك اللحظات القليلة النادرة كالياقوت.. أنتظر على المقعد ذي الكتف المرتفعة فتلتقي عينانا تتسمر لثوان ثم تبتسم. أدرك ما سيحدث لاحقًا فقد اعتدته.. تناديني باسم والدتي أن أقترب لتعطيني بعض البونبوني الصغير فأهرول وقد اعتدت ذلك النداء.. فطيلة وجود والدتي تدرك وجودي الحقيقي وحقيقة أنني حفيدتها، وفور رحيلها تنسى كل ما دار ويعود بها الزمن لسنوات كثيرة لأتحول لابنتها الطفلة.

أصيبت جدتي بمرض الزهايمر في أواخر سنين حياتها بعد إجرائها لعملية وكان للمخدر أثره، إما لبدء أو لعله إسراع ظهور أعراض المرض.. كانت تنسى الكثير من التفاصيل.. بقيت لديها الذاكرة القديمة فقط وعجزت عن الاحتفاظ بالأحداث الجديدة.. ظلت أمي في مخيلتها الطفلة ذات الضفائر وتبخرت أي أحداث

جديدة تتعرض لها بعد دقائق قليلة من معايشتها لها. تناديني باسم والدتي طول الوقت.. كنت أصلح لها الأمر في البداية فكانت تبتسم:

– "يا عفريتة.. بطّلي شقاوة".

وتظنني أداعبها وتعيد معاملتي باعتباري ابنتها وليس حفيدتها، وعندما أصلح لها الاسم مجددًا تعبس هذه المرة وتخبرني أن الدعابة عند تكرارها تصير "ماسخة" فأستسلم وأتركها تناديني كيفما تريد.. يتابع جدي كل ما يدور بعينه من فوق عوينات القراءة صامتًا كعادته نادر التدخل في أي حدث إلا للضرورة.

حمدت الله أن الأمر اقتصر على ذلك معي، فأحفادها وأقاربي الأصغر عمرًا لم تكن لتتذكر وجودهم أصلاً وتظنهم غرباء أو أبناء الجيران أطالوا الزيارة وتطلب منا أحيانًا مخاطبة آبائهم ألا يتركوهم لديها لوقت طويل هكذا.

تخرج لي لعبة "السلم والثعبان" ويمضي بنا الوقت طويلاً في اللعبة وجدي ما زال على جلسته يقرأ كل خبر في الجريدة. يمضي اليوم وأنا أدور معها في أنحاء الشقة.. أتابعها في المطبخ وهي تعد الطعام ثم في غرفتها وهي تقوم ببعض الترتيبات، وطيلة الوقت

تروي لي حكايات عدة عن الأسرة وعنها وعن جدي.. تخرج لي بعض قصص والدتي وأخوالي.. فتلمع عيناي فرحًا...

الصفحات قديمة حال لونها إلى اللون البني وخشونتها مع اختلاف الحبر في الحروف يشي بقدمها.. "مغامرات السندباد البحري" وقصص "أجاثا كريستي" و"أرسين لوبين".. أطالعها في نهم ريثما تنتهي من أعمالها.. تلمحني قد انتهيت فتحين لحظاتي المفضلة معها.

تجلسني على ساقيها وتخرج المشط الأثير لدي على شكل قطة لها أذنان رماديتان وتبدأ في تصفيف شعري لتسريحتها المفضلة التي تطلق عليها "ماري أنطوانيت". أدحرج ساقي في سعادة بالغة وأنا أتأمل شعري في المرآة الصغيرة التي تحملها وأهز حلقات شعري الأنيقة في سعادة.

يدقُّ جرس الباب فأهرول لاستقبال والدتي، أريها تسريحة شعري في سعادة فتربِّت على كتفي وهي تتحدث مع جدتي.. تنظر لي جدتي نفس النظرات الطويلة الأولى.. ترتبك لبرهة وهي تنادي والدتي التي كبرت فجأة ثم كالعادة تنسى وجودي تمامًا ولا تنظر تجاهي.. كل الساعات الماضية تتبخر وهي تثرثر مع والدتي وكأنني غير مرئية.. تلك اللحظات تشعر فيها بالصدمة فتدرك

الحقيقة ثم ما يلبث العقل الباطن أن يجيد التعامل مع الأمر بالتجاهل.

ألوِّح لها مودعة عند الرحيل فلا تأتي برد فعل.. لا أحزن ولم أعد أسأل والدتي عن السبب في تصرفات جدتي بعدما رأيت ضيقها ودموعها التي حبستْها عند سؤالي للمرة الأولى. أدركت أن أمرًا ما يضايق والدتي وجدتي فلم أشعر بحاجة لمعرفته ولا إثارته.. طالما أنني في الأسبوع القادم سأعود لجلستي معها ثانية لتحكي لي مزيدًا من القصص وسيكون هناك مزيدًا من "ماري أنطوانيت" والبونبوني اللذيذ.

درج الذكريات

أين تذهب المفاتيح حين تحتاجها؟! دائمًا ما تجد الشيء أمامك طيلة الوقت طالما لستَ في حاجة إليه ثم يختفي حين تحتاجه.. هذه حقيقة يعرفها جيدًا أصحاب الحظوظ القليلة ويتقبلونها بنفس راضية. أريد هذا المفتاح الصغير بشدة لبعض الأوراق المهمة في هذا الدرج.

أخبرتني والدتي أن لديها رسومات جميلة للغاية كذلك في ذلك الدرج.. استخدام العقل لم يُجدِ مع هذا القفل العنيد.. تجربة مفاتيح متشابهة وبنس الشعر لم تجدِ فلم يتبقَّ سوى استخدام العضلات الغاشمة.. أخيرا تم فتح الدرج بأقل الخسائر بعد تدمير جزء غير مرئي من الخشب. وكأنني فتحت صندوق الدنيا، نسيت تمامًا الأوراق المهمة التي كنت أبحثُ عنها وانطلقت أتأمل تلك الكروت القديمة والرسومات الرائعة.. بعض صور الجدود ثم ملف غامض فتحته لأجد صور والدتي القديمة وهي طفلة وشهادتها الدراسية.

ابتسامة شيطان صغير ارتسمت على شفتيَّ.. أفتحها بحرص وأتأملها بصبر.. أبدأ بالمرحلة العمرية الصغيرة في الحضانة وأبتسم.. اهتمام كبير في هذه السن المبكرة من مواد تعليمية

وأكثرها تربوية.. ثم بدأت طبيعة الشهادات تختلف.. مرحلة الابتدائي.. ابتسامة شريرة ارتسمت على شفتيَّ وضحكة لم أستطع كتمانها.. ففي الصف الثاني الابتدائي كانت درجات والدتي متفوقة للغاية مع اختلاف بسيط في خانة التعليقات حيث كتبت لها الراهبة: "طفلة ثرثارة ومشاغبة"!

أسترجع حديثها الذي ترددده لنا دومًا عن التزامها وتفانيها في المحافظة على القواعد والالتزام التام في الفصل، لحرصها على كوني مجتهدة ومحافظة على قواعد الأدب ويضرب بي المثل في الاحترام والالتزام.. ومن ثم كنتُ شديدة الحرص ألا أقوم بأي مشاغبات ولا تصرفات تجلب لي اللوم أو الملاحظة حتى أكون دومًا كما تتمنى.. وأتذكر مقولة صديقتي المتعجبة أن كل آبائنا كانوا يخبروننا أنهم كانوا أوائل الفصل دومًا في صغرهم.. فمن كان يأتي في المراتب المتأخرة إذن؟

أفتح الشهادة التالية.. بالفعل درجات والدتي تشي بتفوقها طيلة دراستها لكن يبدو أن سنوات الابتدائي لديها كانت حافلة. في نهاية كل تقرير أجد ملاحظات الراهبات عن الثرثرة في أثناء الحصة الدراسية وعن الشقاوة الزائدة.. لا أتخيل أبدًا والدتي في

شكل آخر سوى الوقار حتى وهي طفلة.. فكانت تلك التعليقات تصيبني بالضحك للصورة المتخيلة لدي.

أشعر بصوت خارج الغرفة فأخفي الظرف وأعيد البحث عن أوراقي المهمة التي نسيت أمرها تمامًا. أخرج من غرفتي فأصطدم بوالدتي، أحاول المرور سريعًا كي لا تخونني عيناي وأضج بالضحك أمامها.. أريها الرسوم التي أخذتها وتحثني على ضرورة الحفاظ عليها.. وتخبرني أنها وهي طفلة كانت تحافظ على أوراقها للغاية.. لا تكمل عبارتها فأضج ضحكًا عند تذكري التعليقات من جديد.

الوقت المقدس

للأمر طقوسٌ خاصة.. فهو ليس نشاطًا همجيًا إنما هو عمل سامٍ وراقٍ لا بد له من إعدادات تليق بمكانته. لا بد من تهيئة الجو المثالي.. قتل أي بادرة ضجيج تخدش قدسية الحدث.. نفس عميق.. إنه موعد الاحتفال السري.. موعد طقوس تناول الشوكولاته!

إشارة بسيطة من العين أدرك أنه حان الوقت للشوكولاته.. بدون أي كلام أتوجه لابتياع أنواع الشوكولاته التي نحبها.. الشوكولاته السادة ذات الحجم الكبير بالطبع مع آيس كريم الشوكولاته بالبندق.. وتبدأ الحفلة الممتعة في صمت وسكون.

نتشارك أنا ووالدتي وأختى عشق الشوكولاته.. وكان يزداد الأمر حينما تكون الحالة المزاجية في الحضيض أو يكون المزاج متعكرًا ليوم طويل مرهق أو لمشكلة لا نجد لها حلاً.. لذا ارتبطت الشوكولاته ارتباطًا شرطيًا لدى من يرانى أتناولها بنهم بسوء الحالة المزاجية، وعندها يبدأ في السؤال عما يضايقني!

في تلك الجلسات قليلاً ما كنا نتبادل كلمات.. بل قد تكون الجلسة أمام فيلم دون حديثٍ يُذكر.. نمتصُّ الشوكولاته في استمتاع في

أي شكل كان.. مشروبًا أو قطعًا أو مثلجةً.. لكن كل هذا الصمت كان شديد الصخب بشتى المشاعر والكلمات بل والدعابات التي لا نحتاج لتبادلها.. وكأنه نوع من التخاطب.

مع سريان الشوكولاته في الدم تتضمحل المشكلة لتنتهي.. يذهب كل التعب والإرهاق ويحل محله السعادة وابتسامة الرضا.. لكن تبقى المشكلة المتكررة في آخر كل جلسة.. القطعة الأخيرة من الشوكولاته التي تتلاقي عليها كل الأعين!

بطة

والدتي تثق أن ابنتها تتمتع بمواهب دفينة لا ينتبه إليها أحد ولا بد من استخراجها. ثقتها كبيرة وطاغية لدرجة أنها كانت حين لا تجد تلك المواهب الدفينة تظل تحفر أرضًا أخرى بإصرار نادر.. كثيرًا ما تعلن تلك المواهب عن كونها مدفونة بأرض بعيدة عندها أتحوّل لحقل تجارب مليء بالحُفر والمعاول.

والدتي وكذلك والدي كانا يحرصان على أن أمارس أنواعًا شتى من الرياضات والمهارات فما إن أتممت عامي الرابع حتى التحقتُ مع إخوتي برياضة الكاراتيه وكنت أصغر المشاركين.. كانت تؤمن أنها رياضة نافعة جدًّا وتردد نفس الشعار المحفوظ عن كونها مفيدة لتعليم الدفاع عن النفس، وهو ما كان يتردد طيلة الوقت حتى فقد معناه.

كانت أيام ممارستي لتلك الرياضة من أتعس أيامي.. فعلى عكس أخي الذي كان يستعد بشغف، كان اقتراب موعد التدريب يصيبني بالتوجس.. خاصةً مع الآمال العريضة المنعقدة عليَّ في تحقيق البطولات.. لذا كانت من أكثر الذكريات الأليمة في طفولتي... حرفيًّا.

حيل التمارض لم تفلح ولا البكاء ولا التوسل لعدم الذهاب للتدريب، فكان الرضوخ للأمر الواقع والتحايل عليه هو الحل الوحيد.. فقررت أن أحاول بقدر الإمكان تقليص الفترة الزمنية للتدريب لتقليل المعاناة. فحين كان أخي يهرول للحاق بالتدريب لائمًا إياي طيلة فترة استعدادي في المنزل قبل نزولنا كنت أتعمد إطالة الخطى وأعرج على محل بيع الفشار فألتهم كيسًا وبعدها أعرج على بائع غزل البنات وألتهم كيسًا آخر.. لذلك كانت تلك الفترة هي الفترة التي كنت فيها أكثر سمنة!

أصل التدريب متأخرة عن أخي نصف ساعة فرِحةً بالوقت الضائع، ويستقبلني المدرب بنظرة حادة طالبًا شرح كيفية وصول أخي قبلي بكل هذا الوقت! أتمتم ببعض الحجج عن سرعته وصغر سني، وكنت أعتمد على تجاهله لي أول الأمر حتى قرر في يوم أن يغير من رد فعله الصامت... وأطال النظر فتظاهرت بالبلاهة والبراءة، فقرر أن يعاقبني بأداء تمرين البطة الشهير. وهو نوع من العقاب المعروف في الرياضة وهي أن يقرفص المعاقَب ويقوم بالقفز في وضع القرفصاء، وهو عقاب ملحمي جدير بالأساطير الإغريقية.

بعد مرور عقاب تلو الآخر اعتدت الأمر واعتاده المدرب، فصرت ألتهم غزل البنات بسرعة وأحث الخطى لا للحاق بالدقائق الأخيرة من التدريب ولكن خشية أن أفوِّت عقابي الأثير!

ورغم أن خبرتي في عقاب البطة كانت أكبر من خبرتي في الرياضة نفسها إلا أنني لم تكن تفوتني أي بطولة محلية.. وذلك لصغر سني عند الالتحاق بالرياضة فكان عدد المنافسين قليلاً وكنت أحصد الكثير من الميداليات متأملة نظرة المدرب المندهشة حيث إن الخبرة الحقيقية لي في تلك السن كانت في "البطة" أكثر من خبرتي في الرياضة ذاتها.

مع مرور السنين واكتشاف أنه لا فكاك من التدريب صرت أكثر اهتمامًا بهذا الأمر الواقع وأقل تعرضًا للعقاب، لكن كان هناك أمر يزيد من مأساوية الواقع الذي ارتضيته وهو أن المعاملة سواءٌ للذكر والأنثى؛ فكان من المعتاد أن تفاجئك ضربة من عصا على ساقك أو دفعة كتف لتحميسك أو لكمة حول عينك عند ممارسة الكوموتيه.. واعتادت أذني في تلك الفترة على الكثير "اتش ني.. سان شي" والكثير من "عاش يا وحش".

أمان.. يالالاي

كان لا بد من محاولات لترميم ما أفسده الكاراتيه في ذاتي وكمحاولات للتعويض استجابت والدتي لطلبي بلعب التنس التي استمررت في ممارستها.. لكنها في المقابل أصرت أن ألتحق كذلك بقسم الموسيقى، وكان الاختيار هو العزف على آلة الأورج.. استمرارًا لإيمان والدتي بالمواهب الشتى التي أتمتع بها ولا أدري ذلك..

هكذا تحولت لاعبة الكاراتيه صاحبة اللكمات إلى عازفة أورج.. كان يوم شراء الأورج فرحًا صغيرًا حيث كان انبهاري كبيرًا بكل الآلات الموسيقية الرائعة في المحل. تركت والديَّ يختاران ما يشاءان واتجهت لتأمل آلات النفخ والعود والطبول وصرت أجرِّب كل ما تقع عليه يداي متجاهلة نظرات صاحب المحل الحادة وتعليقاته التي يبتلعها حتى تتم صفقة البيع.

اليوم الأول كان مأساويًّا فعدت أجر أذيال الخيبة لوالدتي أحفظ دموعي قبل أن تنهمر.. إذ وجدت كل الصبية والفتيات حولي يعرفون مفاتيح النوتة الموسيقية وفور أن أشار لهم المدرب بالبدء بدأوا بالعزف كبيتهوفن.. يقول "دو" فأجدهم جميعًا يضغطون

مفتاحًا ما.. بينما أنظر حولي كصيني في سوق للخضار بحي شعبي.. لم ترضَ والدتي عن النتيجة ومن ثمَّ كان لا بد من تدريب مكثّف حتى ألحق بركب هؤلاء الملاعين الصغار.

لا أنكر أنني أحببت التجربة بمرور الوقت وصار موعد التدريب أمرًا أحرصُ عليه، مما شجع والدتي. وكان مدربي شخصًا ودودًا.. يؤمن كوالدتي بتعدد مواهبي أو لعله تأثير والدتي عليه وإقناعها له بذلك.. فرغم أن تلك الأيام كانت الأفضل في كل شيء حتى في ساعات الانتظار الممزوجة بمشروب الـ(فيمتو) الساحر بانتظار قدوم المدرب.. لكنه أقدم على ما أنهى جمال كل شيء.. أعلن لوالدتي عن رغبته في تأديتي اختبارات للغناء للانضمام لفريق الكورال!

ومن الدروس المستفادة التي تعلمتُها في سن مبكرة أن البدء في التنازلات يجعلك عاجزًا عن إيقافها.. فتجد نفسك تقدم تنازلاً تلو الآخر بعد أن فقدت حزمك الأوّلي.. فلما تماديت معهم في تعلم الموسيقى كان السقف التالي هو الغناء.

انطلق مدربي في خيالاته أني سأكون مغنية صولو في الحفل الكبير الذي سيقام في قاعة المؤتمرات.. كان لهذا الخبر أثره في نفس والدتي من فرح غامر وجزع شديد في نفسي، وباءت كل

محاولاتي في أثناء المدرب عن رأيه تارة بالغناء بصوت أجش وتارة بالتظاهر بالنوم أثناء البروفات وتارة بتعمد النشاز وقت البروفة النهائية.

في لمح البصر وجدتني بزي الفرقة الموحد وأشدو معهم.. أشفق على الحضور الذين ابتلعوا أصوات أبنائهم المزعجة وبالغوا في التصفيق إلى حد غير معقول ولم يحظَ به عبد الحليم في حفلات الربيع.. بل وبلغ الإثم مداه أني كنت أتقاضى راتبًا عما كنت أمارسه من نشاط صوتي مريع. استمرت تلك الجريمة لبضعة أشهر ثم قررت أن أعتزل رأفةً بالمستمعين وباستسلام من والدتي التي يبدو أن كثرة الحفلات التي حضرتها وأثرها على أذنها جعلها تستسلم لطلبي من أول مرة.

شط الهوى

للمرة الأولى ستشاركنا جدتي المصيف هذا العام.. أشعر بسعادة كبيرة وقد حملت معي الكثير من الألعاب والقصص كي نقرأها معًا.. نصل أخيرًا لشقتنا بالعجمي وأنطلق في الحديقة الصغيرة مستمتعة بالهواء المشبع باليود.. تسألني والدتي بفضول عن المكان الذي وصلنا له إن كان (جمصة) فأضحك وأخبرها أنها الإسكندرية.. تتأمل ما حولها بدهشة وألمح ملامح لوم على وجهها وهي توبِّخني لاستهزائي بها وأن هذه لا تشبه الإسكندرية في شيء!

نستعد للذهاب إلى البحر وقد ارتديت ملابس البحر الجديدة.. أخرج لأريها لجدتي فأسمع شهقة طويلة:

- "اجرى غطي نفسك يا بنت".

أضحك بدهشتها وجزعها الظاهر على ملامح وجهها وأنا أخبرها أنه (مايوه) وأن الجميع يرتديه على البحر! تطلب من والدتي مراعاة أن تكون ملابسي أكثر احتشامًا فتهزُّ رأسها وهي تبتسم. يساعدني والدي في بناء قلعة كبيرة وأذهب لجلب بعض الماء من البحر في الجردل البلاستيكي الأحمر الكبير.

أسأل جدتي إن كانت تريد مشاركتنا في اللعب بالرمل فأجد علامات الدهشة والتيه عليها قد عاودتها من جديد.. تسألني مجددًا عن هذا المكان فأخبرها بتردد أنه أحد الشواطئ بالعجمي بالإسكندرية تغضب وهي تخبرني أنها لن تتحدث معي مرة أخرى لو استمررت في السخرية منها.. أقسم لها أن هذه هي الإسكندرية بالفعل وأن هذه العجمي أحد شواطئها. يرتفع حاجباها في دهشة كبيرة وهي تخبرني عن الإسكندرية التي تعرفها وهي شاطئ المنتزه وجليم وبشر.. أشعر بالشفقة وهي تتأمل ما حولها بتيه وإرهاق وكأن كل هذا التغيير يصيبها بالقلق والتعب.

تروي لي عن مصيف العائلة القديم وعن ذكرياتها القديمة وأتابع قسمات وجهها الفرحة عند عودتها لتلك الفترة الأعز لديها والأكثر شعورًا بالأمان لها. أتركها لخواطرها حتى لا أشتت أفكارها ولا تختفي بسمتها الرائعة.. تمر لحظة صمت فتتأمل الحضور حولها، تشير لي أن أتأمل أن هناك من أحضر حللاً يأكلون منها على الشاطئ وهو أمر غير لائق ولا يتماشى مع قواعد الإتيكيت فأبتسم دون رد.. فلقد توقفت عند مرحلة زمنية بعيدة تمامًا عما نعيشه الآن. أفيق على شهقة منها وهي تشير إلى إحدى الفتيات ذات ثوب السباحة البيكيني ولا تستطيع أن تكمل جملتها المندهشة

لشدة الصدمة. تتوقف ابتسامتي عند نهوضها وإمساكها بشالها الحريري الأبيض لتعطيه للفتاة وهي تتمتم:

- "استري نفسك يا بنتي!".

سهرات إملائية

عامي الثاني الابتدائي.. المريلة الكحلي الكلوش والقميص المكوي بعناية.. "توك" الشعر ذات اللون الموحد لتلافي العقاب.. القلوب ترتعد عند صعود السلم بعد انتهاء الطابور والغناء والرياضة الصباحية.. تمر مرحلة العبور الأولي أمام الراهبة والمشرفات لا بد أن تكون ملابسك مكوية بعناية تفوح منها رائحة النظافة.. شعرك مشدود للخلف أو في ضفيرتين وممنوع منعًا باتًّا الشعر المسترسل.. توك الشعر بيضاء اللون وغير مسموح بأي لون آخر مخالف وإلا تعرضت للعقاب وهو الوقوف أمام فصلك مدة الحصة الأولى بأكملها متعرضًا لنظرات المدرسات اللائمة ونظرات زميلاتك الفضولية من النافذة.

يمر العبور بسلام وتبدأ الحصة الأولى، لا بد من اللغة الفرنسية في الحصص الأولى.. حتى يكون الذهن مستعدًا لكل ما سيُلقى فيه من قراءة ونحو وقصة وإملاء.. والإملاء الفرنسية هي أسوأ كوابيسي المتجسدة.. أحلم بها أثناء نومي فتتحقق صباحًا. "مدام (ف)" بالعصا الغليظة والشعر الألاجرسون تسير ببطء مستمتعة بدقات كعبها العالي مختلطة مع العبارات التي تمليها بصبر وتمطٌ

في الكلمات كي نحسن كتابتها ونميز بين الصوت المميز لكل حرف.

الصمت المطبق على أنحاء الفصل والرعب في العيون بانتظار الجملة التالية والحيرة المثيرة للشفقة عند تذكُّر طريقة كتابة تلك اللكنة الصعبة، فاللغة الفرسية بها عدد لا يحصى من الحروف غير المنطوقة.. لكن لا بد من كتابتها ونفس الصوت تسمعه لكن يكتب بطرق مختلفة.. دقات القلب تزداد والعرق البارد يلسعني وتدعو ألا تبصرني المعلمة وتنساني اليوم.

تمر خطواتها بجواري.. أوشك على التقاط أنفاسي ثم تسمع أوي اسمي يرن في الفصل ذي السقف المرتفع لأكتب بعض الكلمات على السبورة. أدرك أنني لم أتقن الدعاء جيدًا!

أبدأ في الكتابة على الملأ.. خطأ أول.. وثان.. وثالث... الرعب يسيطر على خلاياي، يصيبها بالعطب.. أنتظر القرعات المتتالية على يدي بالعصا الغليظة.. أعود لمكاني لتذهب زميلة أخرى تتلقى نفس المصير.

لذلك كان لا بد من جلسات ليلية مكثفة بعد عودة والدتي من عملها لا أفعل خلالها سوى الكثير من الإملاء حتى أسقط من

شدة النعاس.. لم تكن والدتي تعترف أن تكون ابنتها مقصرة في أي أمر خاصة الدراسة.. زرعت بذرة ذلك الشعور داخلي وتركته ينمو بمرور الوقت.. كثير من عبارات التشجيع عند التثاؤب وإعلان التعب.. صارت الإملاء محور العالم أما باقي التفاصيل فهي مجرد ديكور كي لا تظل الصورة فارغة.. تحولت المعلمة لشخص أسطوري له مقدرة على اختراق الجدران والأماكن ليتجسد في كل وقت أمامك ملوحًا بالعصا ومصيبني بالرعب.

صارت أتعس لحظاتي هي تلك ما قبل النوم ومقاومة الرغبة الشديدة فيه، وكان هذا الكابوس الليلي لا ينتهي إلا يوم الخميس تليه إجازة بها متنفس قصير، وتعود الحياة فيها لطبيعتها وأعود للنوم دون كوابيس أسمع فيها طرقات كعب معلمتي قادمًا نحوي.

في بيتنا.. كعك

لا أستطيع الانتظار.. الغد يبدو بعيدًا للغاية لدرجة غريبة.. كان دومًا يوم الإجازة يمضي متعجلاً وكأن لديه موعدًا مهمًّا للحاق به.. لكن رغم ذلك تمضي تلك الساعات وكأنها دهر أبدي وكأن هنام مؤامرة من ساعات الكون..

أفتح خزانة ملابسي للمرة المائة وأتفحَّص بشوق ملابس العيد الجديدة.. أشعر بملمس المعطف الناعم وأتخيل الغد عند ارتدائه.. أسمع صوت الأغنية المفضلة لوالدتي وهي تتردد في أرجاء المطبخ القريب من غرفتي حيث تعد العدة وتنهي آخر تجهيزات الغد. مكالمة جديدة تحمل تهنئة جديدة من المعارف والأقارب بالعيد فأنتهز فرصة خروج والدتي من المطبخ لأفتح الثلاجة بحرص، حيث وضعت المجموعة النادرة من البسكوت والغريبة والكعك..

تضبطني والدتي متلبسة بجسم الجريمة فلا أملك أن أنفي التهمة.. تلومني على عدم صبري وتخبرني أنه لو استمر الأمر على هذا المنوال مني ومن إخوتي فلن تجد ما تقدمه للضيوف غدًا عند قدومهم للتهنئة.

توقظنا بخفةٍ فنسمع تكبيرات العيد من المسجد القريب.. أهرع وأقفز من فوق فراشي مرتدية الثياب الجديدة وننطلق سويًّا مأرجحة يدي بيدها ويد أختى حتى نصل للحديقة حيث أحظى بنصيب الأسد من الحلوى والبالونات التي يقومون بتوزيعها على الأطفال بالساحة المخصصة للصلاة.

تخرج علب الكعك التي خبزتْها مؤخرًا وقد ملأت أرجاء المنزل برائحة الدقيق المحببة وترصها على الصينية، ثم تبدأ في رش السكر الأبيض على وجهها.. أتوسل لها أن تدعني أشاركها الأمر.. تترك لي الأمر فأضع السكر في المصفاة الصغيرة وأضربها برفق كما كانت تفعل فينهمر الثلج الأبيض على سطح الكعك الأصفر مزينًا إياه.. أنتقل من صف لآخر في سعادة بالغة.. تمسك بيدي كي أحسن تزيين الطبقات العليا فأشعر وكأنني امتلكت العالم.. يفاجئنا صوت فرقعات صواريخ العيد التي يطلقها الأطفال في الشارع فأجفل وتفلت من يدي علبة السكر ليتناثر في الهواء كأنه عاصفة ثلجية فننفجر ضحكًا وقد تلطخت وجوهنا وأيدينا ورسم السكر ضحكات كبيرة على وجوه الكحك العلوية.

في محل رفع

هي تكره النحو.. تجده من أعقد علوم اللغة ويكاد يقترب من العذاب اللامبرر.. قسوة غير معتادة بدون ذنب اقترفته. وأنا أعشق النحو.. أجده متعة لا حد لها تجعل اللغة لعبة كلامية رائعة.

عادت والدتي لدراسة اللغة العربية بدأب حين كنت بفترتي الثانوية.. حيث كان لا بد أن تجيد النحو وقواعد الإعراب لضرورة الإلمام بها في دروس التجويد.. كثيرًا ما كانت تلجأ لي في يأس كي أشرح لها كيفية أن الفاعل غير موجود في الجملة وكيفية تقديره .. بل وإعراب الضمير الذي قدرناه.. عندها كانت تذهل ولا تصدق كل هذا التعقيد وتردد بضيق:

- "ليه كل ده؟".

كانت من أمتع لحظاتي تلك التي تطلب مني مساعدتها في واجب النحو الخاص بها وأحيانا حين يضيق الوقت لانشغالها بالعيادة وأعمال المنزل تطلب مني النجدة كي لا تتعرض للعقاب من معلمتها فلا أتمالك نفسي من الضحك. حين أرى قلقها الحقيقي

وأداعبها أنها هكذا تلميذة غير مجتهدة حيث لا تقوم بأداء واجبها في موعده.

مررت في أحد الأيام عليها في درسها للنحو بعد إنهائي لتدريبي الرياضي لنعود للمنزل معًا وكانت من أمتع اللحظات، تمالكت نفسي بالكاد.. بدأت المعلمة في المراجعة على الدرس الماضي والسؤال عن الواجب فبادلتني نظرة جانبية أجبرتني على الابتسام.. وبدأ شرح الدرس الجديد. تشرح المعلمة أفعال الشرط.. بدأ الأمر بداية طيبة بعض المجادلات البسيطة وطلب المزيد من الشرح.. ثم تطور الأمر مع ازدياد تعقيد الأمر إذ انتقلت المعلمة لشرح الممنوع من الصرف.

يبدو أن والدتي نسيت وجودي بالجلسة خلفهن، وسمعت دعاباتها القوية أمامي ومشاغباتها للمعلمة.. تقاطعها وتلقي بتعليقات تجبرها على الابتسام الذي هو نوع من الاستلقاء على الظهر من شدة القهقهة لدى المعلمة الصارمة.

تتساءل والدتي بدهشة عن معنى المنع من الصرف:

- "يعني أنا أحط كلمة عشان أمنعها من الإعراب ليه؟".

مجادلات ومشادات بينهما تحيل الجلسة لضحك حتى تضرب المعلمة بالمسطرة لتعيد للجلسة انضباطها.. وبدأت في درسها الجديد عن الأفعال التي تنصب مفعولاً واحدًا وأخرى التي تنصب مفعولين فما كان من والدتي إلا أن عقبت بروتينية:

- "حظوظ".

حتى يضج الفصل بالضحك من جديد.

حالة طوارئ

أشعر بدقات الساعة البعيدة كأنها داخل أذني تخبرني بضرورة الاستيقاظ للاستذكار.. لم يعد باقيًا سوى أسبوع على اختبار نهاية العام الثاني من الكلية.

لا أنام ولا أستيقظ.. عذاب وتوتر.. تزيده تلك الدقات التي تصبح أعلى ما يمكن عند احتياجك للنوم لساعات قليلة فيتسرب صوت دقاتها لعقلك الباطن كأنها قرعات هراوة يمنعك صوتها من النوم.. تيك تاك.. دقات الساعة تصيبني بالجنون.. تيك تاك.. تيك.. أي!

أفيق مسرعة على ألم شديد يجتاح أسفل ظهري.. هل وصل الأمر لعقلي الباطن أن يوقظني بالضرب؟ ألم شديد غريب لم أختبره من قبل.. كأن هناك من يغرز سيخًا دقيقًا في جانبي الأيمن.. أجز على أسناني عند تكرار الألم وأنا لا أصدق كيف من الممكن أن يكون هناك ألم بهذه الضراوة.

أجد أن حدة الألم تزداد ولا بد من الاستعانة بأحد.. أتحامل على نفسي لأنهض.. باب الغرفة مغلق كعادتي عند النوم، لم ألحظ أن

المسافة بعيدة بين الباب والفراش.. أمسك بظهري وأحاول النهوض فلا أستطيع لشدة الألم.

لم أُجِد أبدًا فن الصراخ يخرج الصوت مبحوحًا.. ثوان وتخونني قدماي وأشعر أنني أغوص في الأعماق. لحظات أفيق على صوت أمي الفزِع بجواري تحاول أن تجعلني أفيق وتسألني عما أفعل بمكوثي على الأرض.. لا أقدر على الرد لشدة الألم وأشير لظهري وأنا أتابع نظراتها المرتعبة.. حيرة بالغة تنتابها وهي تسألني عما تفعل، تزداد دهشتي وكأنها نسيت الطب الذي درسته وتمارسه.. عاطفة الأمومة والهلع جعلها تصاب بنوع من التصلب الفكري! تسألني عما تفعله وتكاد تصاب بنوبة فزع.. أتحامل على نفسي وأطلب منها حقني بمسكن لحين معرفة السبب في الألم.. تهرع لجلب المسكن لكن ترتبك يدها وتجلس بجواري على وشك الإصابة بالإغماء وأشعر بضربات قلبها المتسارعة.. أنظر لها فأجد ملامحها شاحبة.. وأشعر بالقلق عليها.. فهكذا لن نجد من يسعفنا نحن الاثنتين.

يعود الألم أكثر شراسة فلا أظهر الألم رأفة بحالها.. وأبتسم وأنا أجز على أسناني. تستيقظ أختي على صوت الاضطراب فيختلط

عليها الأمر من منا المريض لشحوب وجيهنا معًا. تفهم أخيرًا ما يدور وتنقذني أخيرًا بحقني بالمسكن.

أفيق بالمشفى بعد تشخيصي بالمغص الكلوي والأملاح الزائدة.. وأنتبه على صوت والدتي التي عادت لطبيعتها وهي توبِّخني لعدم الانتباه لشرب المياه والكثير من النصائح الممزوجة باللوم.. أفتح فمي دهشة وأداعبها عن الحالة التي كانت عليها ليلة أمس فتنظر لي بدهشة، موضحة للجميع حولنا أنني أعاني خللاً ما جراء المخدر وتختلط عليّ الأمور لأتخيل أشياء لم تحدث.

ماء وخضرة ووجه حسن

بدون مقدمات قررنا الذهاب في نزهة سريعة للعزبة كما كان يطلق عليها الآباء، وصرنا نسميها كذلك كنوع من التغيير وكرغبة في العودة للجذور وكنوع من الترفيه لي خاصة أنني لم أر تلك البلدة منذ صغري. تقع البلدة على الطريق الزراعي ما بين محافظتي القليوبية والشرقية لكنها تتبع محافظة الشرقية أكثر.. ظننت أننا على سفر وأن الطريق سيطول بنا لكن لم يستغرق الوقت سوى ساعة ونصف بالتمام والكمال. كانت آخر مرة زرت البلدة الصغيرة أو العزبة كما يطلق عليها الأهالي هناك منذ أن كنت في العاشرة من عمري، وكنت لا أتذكر سوى ذكريات مبهمة أهمها رائحة الفحم التي كنت أستنشقها أثناء السفر وبالفعل ما إن تركنا العاصمة بزحامها وضجيجها وبدأ الطريق الزراعي الجميل في الظهور ظهرت الترعة علي يميننا.. بدأت صغيرة ثم أخذت تزداد اتساعا، وعلى الجانب الآخر بيوت كثيرة بعضها قديم يبدو على لونه الترابي والبعض بُني حديثا من الطوب الأحمر بالقرب من الطريق.

لم أستطع رفع نظري عن الجانب الأيسر طيلة الطريق لشدة خضار لونه؛ فالغيطان كانت في أبدع صورة.. غيطان الأرز ذات المساحات الشاسعة واللون الأخضر شديد الغنى يريح العين.. تتغير الصورة قليلاً حين ترى بعض المساكن التي بنيت في وسط الأرض الزراعية ضاربة بعرض الحائط كافة قوانين الزراعة ثم تعود الصورة للون الأخضر من جديد.. كان المحصول الأكثر انتشارًا طيلة الطريق هو المانجو.. نجده في كل مكان.. ونجد رائحته طيلة الطريق.. حدائق كبيرة من أشجار المانجو وعلى الطريق أكشاك بسيطة كثيرة لا تبيع سواه كفاكهة وحيدة ولا يبعدها عن بعضها البعض سوى أمتار قليلة.

وكما توقعت واختزنت من مشاهد طفولتي كانت الرائحة هي الأولى.. طغت على رائحة المانجو، ثم ظهرت مصانع الفحم البدائية والتي يعمل بها الكثير من أهل القرية ومنهم صغار السن الذين يجلسون وسط الأخشاب المحترقة والتي لا يقدر أحد على استنشاق رائحتها إلا بضع ثوان قبل أن يختنق.. أتعجب من وجوه الأطفال الذين يتنقلون بين صفوف أخشاب الشجر المقطوعة ويعملون داخل محارق الخشب دون أن يظهر أي تعب عليهم.. نعبر تلك المناطق لتعود الطبيعة للصورة.. تبدأ نفسي في الاسترخاء وأمد قدمي أمامي وأنا أتابع ذلك المشهد الساحر.

أرى القناطر الصغيرة التي بُنيت بعرض الترعة الكبيرة للتحكم في المياه وعلى يساري مئات الأفدنة الخضراء الجميلة.. تمر دقائق ونجد منطقة صناعية ضخمة يوضح أبي لي أنها مصانع أبو زعبل المختلفة التي قصفت في ١٩٦٧ فهناك مصانع أسمنت وأسمدة وكبريت.. ثم تحسست عنقي وأنا أقرأ اللافتة الكبيرة التي كتب عليها "مجمع سجون أبي زعبل والمرج" وأرى عربات الشرطة يجلس أفرادها خارجها والسور العالي الممتد للسجن يحجب عالمًا غامضًا بالداخل.. أندهش لكل تلك التفاصيل التي أراها للمرة الأولى وأتساءل هل لم أكن دقيقة الملاحظة في صغري أم أن كل ذلك طرأ حديثًا على الطريق!

.. تعود الحقول الخضراء من جديد فيعود الهدوء لنفسي. أنزع نظارة الشمس لأرى أفضل متجاهلة حرارة الشمس وأتأمل انعكاس أشعتها على صفحة المياه وعلى الغيطان.. نتوقف عند نقطة تفتيش صغيرة فتهب رائحة المانجو قوية وأرى أقفاص مانجو يتم رصها داخل إحدى سيارات النقل الكبيرة ويتناول الأطفال فتية وفتيات الأقفاص من يد إلى يد.. أملأ صدري برائحة المانجو الجميلة و نكمل سيرنا...

يتراءى لنظري مراجيح حديدية وعربات متصادمة على جانب الطريق، نتمهل في سيرنا من الازدحام فألمح صورة كبير "للسيدة مريم العذراء" وأرى محلات تبيع الحلوى من كل نوع والحلويات المختلفة ومحلات تبيع أدوات زينة حريمي وأخرى تبيع طراطير جميلة ويزداد أعداد المراجيح والألعاب المختلفة وأرى كثيرًا من الناس يتجهون إلى سرادق على ضفة الترعة ولافتة كبيرة كتب عليها أن أحد أعيان البلدة يرحب بالزائرين في مولد السيدة العذراء.

عربات التوك توك تنتشر بكثافة طيلة الطريق وداخل القرية، تارة تجده ينقل ركابًا وتارة ينقل أقفاص مانجو وتارة تجد أحدهم قد قلبه رأسًا على عقب كي يغسله بجور الترعة! ألمح المعديات التي تنتشر طيلة الطريق كي يعبر الناس من ضفة للأخرى... وأخيرًا وصلنا إلى البلدة أو العزبة كما هو مكتوب على اللافتة ومررنا على المسجد فذهب أبي ليلحق بصلاة الجمعة واتجهت مع والدتي إلى البيت الذي كنت أذكر القليل عنه.

نسير في الممر الضيق ثم نجد أنفسنا أمام واجهة المنزل الذي أصبح أطلالاً فيما عدا غرفتين وحمامًا جددهما أبي وأخوالي حديثًا.. أسأل أمي عن السبب في أن أحدًا لا يأتي كثيرًا، تتنهد

وتتحدث في اقتضاب عن الانشغال.. أتأمل حال المنزل وأتأمل الحقول المحيطة شديدة الخضرة.. تعود لي مشاهد الطفولة حين كانت العائلة تجتمع في شم النسيم وحفلات شواء الذرة واللعب بالورق والدومينو... عن الضحكات العالية ليلاً وحلقات السمر التي كنت أتوسل لشباب العائلة المشاركة فيها.. أشعر بالحسرة حقًّا.

بعد أن استراحت أمي قليلاً اتجهنا إلى واجهة المنزل وجلسنا قليلاً تحت ظل شجرة وارفة ما زالت على حالها منذ صغري.. أتأمل الصبية الذين يعملون بعيدًا في الحقول وهم يجمعون ثمار المانجو الذي يبدو أنه لا أحد يزرع فاكهة غيرها بالمنطقة.. يمر بجوارنا أحدهم ويقدم لنا بعض الثمار ننطلق لنسير معًا.. نعبر إحدى القناطر الصغيرة –التي سقطتُ بداخلها قديمًا وأمضيت اليوم كله وقتها أبكي– نستمر في السير داخل الحقول حتي نصل إلى الشجرة التي تذكرتها فور رؤيتها والذي يشكل جذعها أريكة مثالية.

تنتهي صلاة الجمعة فيعود أبي ومعه أحد الرجال.. أدقق قليلاً في ملامحه ثم أتذكر "عم حمص" كما كنا نناديه في صغرنا والذي كان يسمح لنا بركوب حماره ونحن صغار. أتأكد من أمي متسائلة

"مش دة عم حمص؟". تقذفني أمي بنظرة محذرة وهي تؤكد عليّ ألا أقول له ذلك فلقد أصبح عم حمص: الحاج محمد.

أتركهم يتحدثون وأمضي قليلاً بين الحقول وأنا أفتقد ذكريات الماضي حين كانت العائلة كلها تجتمع.. يجري الأطفال في الغيطان المحيطة بالمنزل الكبير ولاعبين كل أنواع الألعاب من عسكر وحرامي واستغماية وتسلق الأشجار.. وحلقات شيّ الذرة التي لم نكن نصبر لتبرد حتى نلتهمها.. كل ذلك ولّى بعيدًا المنزل صار أطلالاً أتنهد بعمق وأشعر بوحدة شديدة.. وأنظر حولي لأملأ عيني باللون الأخضر العذب وألمح طيور أبو قردان تتقافز بين الأشجار.. أسمع صوت كروان يتردد صوته في الفضاء الواسع فينشرح صدري وأعود لأجلس معهم.. تمضي الساعات وعم حمص الذي صار الحاج محمد يصر على أن نتناول الغداء معهم ويغرينا بالفطير المشلتت والحمام. يعتذر أبي ويعده بتلبية طلبه فيما بعد.

نرحل بعد أن أختزن صورة الخُضرة الشاسعة حولي وأنا أسمع صوت الكروان من جديد وأستعد للعودة للقاهرة من جديد. أشعر بحزن أحاول إزاحته فلقد كبر الصغار وأصبحت أحداثنا

المفعمة بالطاقة مجرد ذكريات قديمة تتعرض للتهالك تمامًا كآثار المنزل الكبير الذي صار أطلالاً.

أم العروسة

لم أعد أشعر بقدميّ.. نفدت طاقتي لكل المشاوير التي قطعناها معًا وأنا أهرول خلف والدتي وأختي أحمل لهما المشتريات وأتابع فتارين المحلات لشراء المزيد من الملابس أو المزيد من الملايات أو الأطباق فلم أعد أميِّز بين ما نشتري لكثرته. أتأمل قدمي الباكية داخل حذائي فلا أجد مفرًّا من الجلوس على حافة أحد الأرصفة غير عابئة بنظرات المارة ولا تعليقاتهم وأمد ساقيّ المستغيثة شاعرة براحة كبيرة.. أرفع رأسي في إنهاك فأسمع أختي تتوسل للرجوع للمنزل فلم يعد بنا أي ذرة طاقة تسمح بالاستمرار.. لا تجد رد فعل من والدتي التي تكمل تفحصها الدقيق لكل فتارين المحلات وتدخل محلاً جديدًا لتسأل البائع عن أسعار أشياء غريبة لا أدري كنهها ولكن يبدو أنها من مستلزمات العروس.

ألوم نفسي للمرة المائة لعرضي الكريم لمصاحبتهما في الشراء ومساعدتهما في مشاويرهما المتكررة .. فلم أكن أدرك فداحة الأمر.. التفتُّ لأجد أختي قد انضمت إليَّ في جلستي فأبتسم بإنهاك. نتابع والدتي بأعين مرهقة وهي تتحرك بنشاط بين هذا

البائع وذاك تسأل عن أنواع وألوان وتشير لها كي تقترب لتختار فتومئ لها أنها توافق على كافة الأشياء التي تريد أن تبتاعها.

أضحك بشدة حين أتأمل شغف والدتي واهتمامها الزائد حتى ليختلط الأمر على المشاهد من هي العروس منهما! تنطلق بخفة بين بائع وآخر وهم لا يلاحقون على تلبية رغباتها ونأكلها بأفواه مفتوحة وأعين مغمضة.

تختار تصميم الغرف.. وألوانها.. تتابع مراحل تصنيع الأثاث وترتيب الأواني في المطبخ الجيد.. تتابع تنظيم الكؤوس داخل النيش.. تختار أقمشة فستان الفرح وتدعها هذه المرة تشاركها اختيار التصميم، ثم تترك لها الحرية المطلقة أخيرًا كما طلبت أكثر من مرة.. ليس في الاختيار ولكن في القياس.

أتباع نظرات عينيها المتحمسة والابتسامة التي لا تفارق وجهها ومشاركتها في أدق التفاصيل التي لا ينتبه لها أحد سواها.. ثم أخيرًا تم الإعداد لكل شيء ولم يبقَ سوى يوم واحد قبل الزفاف الذي تنتظره بشغف أكثر من شقيقتي. تسألني باهتمام شديد كمحقق دقيق عن كل المهام التي أوكلتها لي وعن كيفية أدائي لها وتتأكد بنفسها من نتيجة ما قمت به وكأنها لا تثق بإجاباتي وهي تردد دومًا أنها لا تحبذ لا مبالاتي تجاه الحدث العظيم الذي نقلته

لشقيقتي.. ثم بعد التأكد للمرة الثانية على إتمام كل الإعدادات أنتبه لأمر طرأ على خاطري وأسألها عن ثوبها الذي سترتديه في الزفاف فلم أره حتى الآن.

تنظر لي بعيون مفتوحة مندهشة وتمر فترة طويلة من الصمت فترتسم ابتسامة عريضة لمعرفتي الإجابة!

بعد منتصف الليل

البيت كله غارق في الصمت.. الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.. كعادتي في عشق تلك الساعات النادرة من الهدوء الداخلي والخارجي والكوني.. أستيقظ للاستذكار حينًا وللكتابة أحيانًا.. أو لمجرد التمتع بمشهد السماء الصافية والهواء البكر والهدوء الذي يكسو الطرقات.. يتأخر عن موعده قليلاً فأنظر لساعة الحائط التي تشير للثالثة والربع.. ليست عادته هذا التأخر فهو يأتي دومًا في موعده! لا أنتهي من تلك الفكرة حتى يتناهى لسمعي صوته. ترتيل القرآن بصوتها العذب يأتيني ضعيفًا بعيدًا لكن واثق.. سورة آل عمران تنساب آياتها في أذني بصوت والدتي، أغمض عينيَّ مستمتعة بصوتها الشجي وشاعرة بسلام نفسي لا حد له.

لا أحد قادر على إيذائي في تلك اللحظات.. لا شيء قادر على إثارة فزعي في تلك الدقائق.. لم تغفل تلك العادة لبضع سنوات ولم أغفل عن الاستيقاظ للاستماع لها ولملائكية هذا الجو الذي يخلقه الترتيل مع السكون وصوت الكروان.. صوت المؤذن يتلو تواشيح قبيل الفجر بنغم رخيم معلنًا قرب انطلاق أذان الفجر.

أعب الهواء بنهم وكأنني أريد حشد كل هذه التفاصيل الرقراقة الروحانية داخلي.. لا أرغب في ترك سراح الزفير وكأنني أريد لهذا النفس العذب البقاء بداخلي للأبد.. لا أحبذ الدخول إليها كي لا أخرجها من هذا الجو الروحاني وأكتفي بسماعها عن بعد.

أعود لتلك العادة كثيرًا وكأن ساعتي البيولوجية قد تم وضع هذا النظام الوقتي المحدد لها حتى بعد مرور سنوات.. حتى بعد رحيلها عنا.. ظلَّت تلك العادة تلازمني وكفيلة بتحويل حالتي النفسية للأفضل وبدء اليوم بنفس صافية.

الساعة الثالثة فجرًا.. والبيت غارق في السكون.. أجلس جلستي المعتادة بجوار النافذة أستمع للتواشيح وصوت الكروان.. أنتظر الصوت العذب الذي أفتقده فلا يأتي.. طال الانتظار ولم يعوض عذوبته في فمي وأذني أي صوت آخر.

الفهرس

اخفَى وغور..!	٧
امسك حرامي	١١
سنية.. (هسّي!)	١٧
بنت العمدة	٢١
تنكر	٢٧
أخي لاعب السيرك	٢٩
تلك النقوش المضيئة	٣٣
اليوم الأول	٣٧
سلطة	٤١
الأكمام ممنوعة	٤٥
"ماري أنطوانيت" والسندباد البحري	٤٩
درج الذكريات	٥٥
الوقت المقدس	٥٩
بطة	٦١
أمان.. يالالاي	٦٥
شط الهوى	٦٩
سهرات إملائية	٧١

في بيتنا.. كعك	٧٥
في محل رفع	٨١
حالة طوارئ	٨٥
ماء وخضرة ووجه حسن	٨٩
أم العروسة	٩٧
بعد منتصف الليل	١٠١

الكاتبة

سارة محمد شحاتة

- حاصلة بكالوريوس صيدلة ٢٠٠٩ من جامعة عين شمس.
- تعمل في مجال صناعة الأدوية.
- خريجة مدرسة الراهبات الفرنسية نوتردام دي زابوتر.

الأعمال السابقة:

- خمس نجوم، رواية، دار الدار للنشر ٢٠١٠.
- رائحة نعناع، مجموعة قصصية، ٢٠١٢.

الجوائز:

- حاصلة على جائزة الدولة التشجيعية عام ٢٠١٤ عن المجموعة القصصية "رائحة نعناع".